البحث الرابع

خليل مطران

شاعر العربية الإبداعية

الدكتور اسماعيل احمد ارقم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

شعر مطران وطابعه العالمي

﴿ توطئة ﴾ الجيل الذي نشأ فيه الخليل هو في الحقيقة جيل تداخلت فيه عصور نيابة ، فهو من هذه الناحية ليس بجيل واحد تتناسق فيه الأوضاع والأحوال وان اجتمعت في نطاق واحد من الزمان . هذا الجيل الذي انصرم بانصرام القرن التاسع عشر نسيج لون من الزمن لم ير تاريخ المشرق له مثيلاً من قبل الا في القرن الثاني للهجرة من حيث تداخلت في ذلك العصر أجيال متباينة الألوان وأوضاع مختلفة الأشكال . غير ان هذا الجيل الذي دخل في صفحة التاريخ اجتمعت فيه ثقافات وحضارات — ثقافات العرب المتوارثة عن العصور المختلفة ، والتي تكوّن ثقافة ذلك الجيل التقليدية ، وحضارات الغرب الطارئة وثقافاته التي كانت تنعكس في صورها المتباينة على محيط الجماعة في ذلك الحين — جعلتهُ مضطرباً ، ومنطوياً على أجيال في تضاعيفه

ونحن لا يهمنا من هذا الجيل غير ما اتصل بالخليل من أسبابه . فكوّن بيئتهُ المكانية من الزمان . وخليل مطران وان ولد في الجيل الثالث من القرن التاسع عشر ، فقد نشأ بين ذلك الجيل والجيل الذي لحقه المنقضي بانقضاء القرن الماضي . ثم إنهُ وان ماشى الجيل الأول من قرنا هذا في اتجاهاته فإن شخصيته تقومت بأسباب الجيل الذي نشأ فيه . ذلك ان الانسان ابن نشأته ووليد بيئته الأولى . لأنهُ من الساعة التي يولد فيها حتى يودع أيام الطفولة فان افعاله العكسية الأصيلة هي التي تتحكم في سلوكه مستمدة الأسباب مباشرة من جهازه العصبي ، تلك الأفعال — التي كانت تعرف من قبل بقوانين الطبع وأحكام الغريزة — والتي تكون مطواعة في طفولة الانسان للمؤثرات التي تنطوي عليها بيئتهُ المكانية من الزمان ، والتي تستمر دوافعه

الأولية على الحركة من قواسر الطبع وأحكام الغريزة . والانسان يخرج من طفولته تحت تأثير هذه العوامل مصبوباً في قالب تتكوّن شخصيته استناداً اليه . هذا القالب يكافىء الحالات التي أحاطت به من جهة ، والدوافع المستزلة من جبلته والتي تحركه من جهة أخرى

ونظراً لأنه في الحالات الاعتيادية تكون الأسباب الطبيعية في تداخلها بالمؤثرات التي تنزل من الجماعة منتهية الى حالة واحدة عامة بالنسبة لأفراد الجماعة البشرية في فترة من الزمان ، فان الناس يخرجون مصبوبين في قالب معيّن . وبعد ذلك فلكل شخص من الجماعة مقوماته الذاتيّة المستزلة من دوافعه الشخصية التي تدخل في التكافؤ مع الجو الذي يعيش في ظله ، والتي تتكوّن شخصيته استناداً اليها

ولما كانت المؤثرات التي تتفاعل في قلب المجتمع البشري لا تثبت على صورة واحدة ، وتتحول من جيل الى جيل بما يستجد مع الزمن في محيط الجماعة من العوامل والمؤثرات ، وتتغاير من قبيل الى قبيل بما يقوم من الانفعالات بروح الجماعات ، فان الحالات الخارجية بالقياس الى الانسان تتغاير ، وتتغاير تبعاً لها المحيط الاجتماعي فتأثر بتغيرها الجماعة التي تعيش في ظل المحيط وتتنفس في أجوائه . وبعد فعصر الخليل من حيث هو جيل تداخلت فيه عصور متباينة ، فهو من هذه الناحية في روحه ، يتكافأ مع صورة كل عصر من هذه العصور التي داخلت الجماعة المتأثرة باسبابها

***

اذن ليس لنا أن ندخل في تفاصيل دقيقة على العصر الذي ولد فيه الخليل ، والعصر الذي نشأ فيه ، ونسهب في وصفهما واستقصاء حوادثهما ووقائعهما لان الذي يعنينا من هذه الفترة ما اتصل بشخص الخليل من أسبابه ، وهي مستزلة من طابع الجماعة العام ، التي عاش الخليل في ظلها وتنفس النسمات الأولى في أجوائها ، ثم الخلوص بحقيقة ما اتصل من العصر بشخص الخليل خلوص بالعوامل التي تفاعلت مع شخصه فكانت سبباً في تكوين شخصيته

ولا شك ان خليل مطران وقد تقلب في أجواء مختلفة بعد ان اكتملت شخصيته ، في موطنه بلبنان وفي تونس وفي باريس التي رحل اليها ، وفي مصر التي استقر بها اخيراً فإن شخصيته مهما تظهر خاضعة للاحوال التي استجدت عليه في العوالم الجديدة التي عاش فيها وتقلب ، فان هذا الخضوع كان في حقيقته مماشاة لتلك الاحوال ، وبعد فشخصية مطران التي تكوّنت تحت تأثير التفاعل بين دوافعه الأولية وأسباب محيطه الدائر وبيئته الأولى ، هي التي تظهر في خلجات نفسه وفي منحى تأثره بالاشياء طيلة حياته

قد تبدو هذه الفكرات الاولية غريبة على ابناء العربية الا انها في صميمها تستند الى حقائق

ذاتية من علم النفس التجريبي ، حققتها معامل بحث التشخيصي للنفس في روسيا وأميركا بتجارب دقيقة [1] وإذن يكون في الوسع ملاحظة القوى الخفية التي تفاعل في أطواء النفس البشرية ووجه تفاعلها ، كما يكون في الوسع النزول بالشخصية عند الانسان الى حكم الموازنة العصبية ، وبيان وجه تركز هذه الموازنة في النفس العكبي الأصيل وما تحول عنهُ من ارتفاقات كوّنت الفعل العكبي المتأصل ، والخلوص من ذلك كله بحقيقة الشخصية الانسانية . ولاشك أنّ ملاحظة أسباب البيئة التي تدخل في مكافأة مع الدوافع الأولية عند الانسان ، الجانب الاكبر من القيمة في معرفة الشخصية الانسانية ، من حيث تحدث الارتفاقات في الرجوع الاصيلة عند الانسان

ومثل هذا التفكير يجهزنا بتكأة علمية لدراسة عصر الخليل نفسه ، بل لتفهم من عصر الرجل شخصيته على وجه علميّ مستنزل من قواعد واصول ، تفضي بنا الى أغوار النفس البشرية وتجعلنا على اتصال بسر المعاني والافكار ، وكيف تتدفق في أطواء النفس البشرية ، بملاحظة آثار الرجل والخلجات التي تظهر في آثاره . الا ان مثل هذا النظر يعتبر مبالغة في اتخاذ الجانب العلمي كما وان تطبيقه على درس الآداب يعتبر انصرافاً عن النقد الفني المباشر الموجه للآداب الى بحث حقيقتها والعوامل التي تفاعلت فكيّفتها على هذه الصورة . الا ان هذه الاعتبارات حائطة لان مثل هذه الدراسة وان قامت على أسس من التحليل يخشى معها انقلاب البحث الأدبي علماً تحليليًّا صرفاً فهي من حيث أنها لا تنسى الاعتبارات الفنية لا تفقد الروح الفنية

هذا المنهج في البحث هو الذي يقتضيه منطق الامور . وإذن لاوجه للاعتراض عليه — كما يفعل البعض — بأنهُ يقتل النقد الفني . لأن الآثار الادبية والفنية ، ان كانت تعكس فيها ظلال روح العصر ، فهي نتيجة للمقدمات الخفية التي تفاعلت في أطواء النفس حيناً حتى برزت ، واذن تكون مهمة النقد الكشف عنها في أصولها ومقدماتها وليس معنى هذا ان يكون درس الأدب علميًّا الاسباب التي تمخض عنهُ ، لانهُ لا يعني اغفال شأن الاعتبارات الفنية . فمثل هذا التفكير لا يؤدي الى رفض ما هو مجرد واحلال كل ما هو نسبي ، وانما هو يعمل للكشف عن الأسس النسبية التي يتقوّم بها هذا المجرد المنتزع من اعيان الاشياء النسبية في صورها المختلفة وأشكالها المتباينة . والواقع انهُ ليس هنالك في الحقيقة ما هو مجرد ، وانما كل ما هنالك تحول دائم وصيرورة متواصلة وتعاقب لانهاية له من الفعل وردّ الفعل ، تأخذ الاوضاع النسبية منها الاشياء ، ثم تراجع القسط المشترك منها ، وهو المجرد المنتزع من أعيان تباينة الأوضاع

هذه أوليات لم نجد بدًّا من الكلام عليها والاستطراد فيها قليلاً ، لنمهد بأساس لدراستنا لعصر الخليل ، وما يستنزل من أسباب شخصيته منها ، وما تقوّم من أدبه وفنه بها

(١) تجارب بالطوف وورانديك وانظر على وجه خاص آثار ماكدوجل عالم النفس المشهور

— ١ —

ولد خليل جبران سنة ١٨٨١ في بشرى . فهو في ثلاثة وثلاثين من سني حياته وهذه السنون التي جاوزت جيلين من الزمان تمتاز بما انعكس على صفحتها من مختلف الاحساسات المتناقضة ومتباين المشاعر المتضاربة . وقد كانت هذه الانفعالات كلها تأخذ في ظهورها على صفحة العصر صوراً متباينة وأشكالاً مختلفة نتيجة لتقلقل الذي أصاب المجتمع في صميمه ، وهذه طبيعة عصور الانتقال في التاريخ دائماً

إذن نحن إزاء عصر انتقال ، وأظهر سمات هذا العصر تداخل الثقافتين الشرقية والغربية وتشابكهما . ويمكننا أن نتخذ سنة ١٨٦٠ التي كانت بحوادثها الدامية وما أفضت اليه من استقلال جبل لبنان استقلالاً داخلياً ضمن نطاق الدولة العثمانية ، نقطة ارتكاز لدراسة عصر الجبل . فإن هذه السنة تعتبر حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ سوريا ولبنان . وتعتبر الفترة التي سبقت عام ١٨٦٠ فترة انتقال من عصور الانحطاط الى عصر النهضة الأولى التي ظهرت معالمها الأولى بقوة في ذلك التاريخ في الشرق الأدنى

لقد كان عهد الانحطاط الثقافي في سوريا يشمل فترة من الزمن تمتد من أيام سقوط العرب عن عرش الخلافة الاسلامية في بغداد وتنتهي بغزوة نابليون بونابرت عام ١٧٩٩ لمصر واجتياحه بعد ذلك أودية سوريا الجنوبية حتى أسوار عكا . وكانت حملة نابليون مقدمة لإيقاظ أهل سوريا ولبنان . فقد أحسوا بآثار المدنية الأوربية في صورها الثقافية والسورية والمعاشية . ثم بدأت الصلات تتعزز بين القطر السوري وأوربا وأخذت التجارة وحب التعامل مع الشرق يجذبان بعض الغربيين الى التوافد على الثغور السورية تحدوهم الرغبة من جهة في فتح أسواق جديدة أمام التجارة الأوربية والحصول على مواد أولية من هذه الأسواق من جهة أخرى

والسوريون أهل تجارة من قديم الزمان . بل هم أول من ركبوا السفن وخاضوا عباب البحر وضربوا بالقوافل شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وامتدت تجارتهم من الهند الى أسبانيا وساروا بسفن سليمان ومن بعده بسفن فراعنة مصر الى جنوبي افريقية . وتقلبت الأحوال وكرّت القرون وأهل سوريا لم ينفكوا عن التجارة براً وبحراً . فلما اتصلت بهم أسباب التجارة بأوربا في أوائل القرن التاسع عشر وكان الأمر في سوريا قد استتب للأمير بشير الشهابي المعروف بالكبير ثم لابراهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر ، عاد الناس الى الزراعة والتجارة ، فثقبوا أراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دودة القز وعنوا بها الى فرنسا فانتعشت الحالة الاقتصادية وسارت القوافل من الجمال والبغال تنقل بضائع المشرق من العراق الى دمشق ومنها الى الثغور السورية على ساحل البحر

كما وأنها كانت تحمل بضائع أوربا الى داخلية البلاد وعنها الى إيران حتى تنتهي الى الهند. فلا ترى بلدة إلا وتسمع غناء المكارين يحدون جمالهم وأجراس بناغم تحيي طلعة الليل وتطرب آذان النيام وتنشر لرخاء عيش جانب كبير من السكان. بخلة جرى عليها أهل الشام من عهد الفينيقيين واشتروا عليها أكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون أخرى والدهر في الناس قلب[1]

وكان أمراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زراعة التوت وتربية دودة القز فصارت مزارعهم في البقاع التي تنتهي عند حدود بعلبك تأتيهم بما يحتاجون اليه من الحبوب وحراجهم في الجبل تسوم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربى فيها الدود ويعصر من زيتونها الزيت فتمتعوا برفاه العيش وظهر ذلك في أعراسهم وما تمم. وكانت كثرة الخير في هذه الفترة من الزمن سبباً للالتفات للأرض فكثرت غلاتها وتحسن ما تنتجه من ... كان العصر عصر رخاء مادي، استتب فيه الأمن والنظام واستقرت الأمور على حال واطمأن الناس الى حياتهم. وكانت الصلات بين أوربا وسوريا تقوى مع الزمن وتتطور الى صلات ثقافية، وأخذت البعوث تتوافد على الثغور السورية والارساليات تتزاحم، والفكر يجدوه رغبة في نشر الثقافة الأوربية ومن ورائه بعضها الرغبة في تبشير بالمعتقدات والمذاهب، او العمل على نشر اللغات الأوربية، مقدمة لانشاء نفوذ يكون باباً لاستعمار بلدان الشرق الأدنى

كانت حملة نابليون على مصر وحروب ابراهيم باشا مع جيوش السلطان وفتحه لسوريا باعثاً على اهتمام أوربا بالشرق الأدنى واستيقاظ الشرق. وهكذا فعلت الحوادث فعلها في الربط بين العالمين

كان الاتصال بين الشرق الادنى وأوربا سبباً لنشوء حركة جديدة أخذت تستجمع الاسباب للظهور، غير ان مبادئها الأولى بدت في آثار فارس الشدياق قبل عام ١٨٦٠، الا أنها لم تظهر مستجمعة الأسباب للظهور بقوة الا بعد عام ١٨٦٠ في آثار كتاب لبنان، وربما كانت الحوادث الحيل يد في ظهور الحركة الجديدة بقوة. غير أنه يجانب هذه الحركة ظهرت حركة مضادة لها تميل للرجوع الى الماضي محاولة احياء تراث العباسيين والأندلسيين ومن هنا كانت هذه الحركة بالقياس الى الحركة الأولى رجعية، لأنها كانت تستجمع الأسباب من الماضي السحيق وتعمل على ان تصلها بالحاضر لتقيم عليه صرح المستقبل. هذه الحركة المحافظة بدأت وجودها كرد فعل لحركة الجديد[2] وانتهت محاولة جريئة على يد الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) لنقل الأدب العربي من ناحية الأغراض التقليدية التي انتهى اليها في عصور الانحطاط

(١) يعقوب صروف في امير لبنان ص٢٧-٢٨ (٢) جورجي زيدان في تاريخ الآداب العربية ج ٤ ص٣١

الى ناحية الأغراض العربية الصحيحة التي كانت على أيام الازدهار للعبقرية العربيّة . ونحج اليازجي ومن بعده ابنه ابراهيم في أن يعيدا للغة العربية قوتها القديمة وبلاغتها السالفة . كما نحج الشيخ نصيف في أن يرجع بديباجة الشعر العربي الى الديباجة العباسية والأموية ومن هنا كانت حركة الإحياء العظيمة لآثار الماضي التي تركت اكبر الآثار في نهضة مصر في ذلك الحين

عادت العربية الجزلة والديباجة القديمة للحياة ، ولكن عادت والاستقرار اساسها ، وظهر بجانب الميل لبعث تراث الماضي والمحافظة عليه في البيئات الإسلامية ، ميل للتخلي عن هذا التراث خصوصاً في بيئات المسيحيين من أهل الجبل ، وذلك تحت تأثير الاتصال الوثيق بأوروبا المسيحيّة

***

كان ضعف الدولة العثمانية سبباً لأن تلعب بها أهواء الاستهارين . وأصبحت محط انظار الطامعين بالاستقلال يشؤون البلاد، وكانت مصر في شبه استقلال عن الدولة، وكانت الثورات والفتن تقوم بين الحين والحين في أنحاء الدولة العلية . وبالجملة كان رأس الدولة قد سرى فيه الفساد ، وكان من معالم سريان هذا الفساد ان أدرك بعض الطامعين في دست الحكم ما يحيش بلبنان من الأحقاد والضغائن وان ساعة الفتنة قريبة فكتموا لها بالتحريض والتشويق بحدوهم الرغبة في احراج الحكومة القائمة عبر البسفور في أستانبول اذا قامت الفتنة وبحركت أوروبا . ومن هنا كانت مساعدة أصحاب الغرض من العسكريين للدروز على النصارى والنصارى على الدروز . ومن هنا شبّت النار وانتشر حريق الحرب الأهلية وتعددت المعارك حدود الجبل بتشويق أصحاب الغرض فشملت سوريا ، وكان ان تحول الصراع الى قتال ضد النصرانية في كل القطر الشامي[1]

وتدخلت فرنسا واوصلت قواتها وانتهت هذه الحوادث بعد ان ذهب ضحية لها آلاف الأرواح الى إنشاء استقلال داخلي لجبل أرض نزعة اللبنانيين الاستقلالية وأشعرهم بكرامتهم الذاتيّة

وقد وقفت حوادث الجبل هذه بجانب الشعور الاقليمي المتوارث عن الآباء سبباً لانعزال الشعور اللبناني عن المحيط العربي ورجعت الى لبنان شخصيته تنفض عنها غبارها علق بها من العروبة. وكذلك كان لحوادث الجبل الفضل في اظهار الشخصية اللبنانية للحياة من جديد من حيث حملها على تقطيع ما كان ينشأها من العقلية العربية[2]

---

(١) يعقوب صروف في امير لبنان ٣٣ و ٣٤ و ٥٥ و ٧١

(٢) انظر Danwiki في بحثه Hist. des Maronites

— ٢ —

ان لحوادث الجبل التي جرت عام ١٨٦٠ مدلولها البليغ من ناحية مقدماتها التي تدل على اضطراب شأن الدولة العثمانية ومن ناحية نتائجها التي سارت لبنان الى الأخذ بالثقافة الاوربية والعمل على نشرها . والواقع ان هذه الحوادث كانت نقطة تحول خطير في تاريخ الماروني في الشرق ، اذ دفعهم نحو الغرب ، فكانوا رسل ثقافتها بعد جيل من تلك الحوادث في الشرق الأدنى . والواقع كما يقول الدكتور صروف :

[شهال لبنان مقر الردة ومعقل رجال الدين . عصى فيه مرسل الروم ولم يخضع لقضاء المسلمين بل كان يلازمهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرائه السيادة المطلقة بين أورشليم الى انطاكية يحاربون في أمة كما يحارب الاكفاء بعضهم بعضاً ، واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين أرثوذكس القسطنطينية فعادوا الروم الغرب عليهم ، وتوالت السنون وهم لا يربحون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً . فضعف شأن الامراء وزيد الخراج حتى اقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لأنهم يتجددون ولا تحاب فيهم . فديرهم في كل مقاطعة ، وصاروا يحتلون كثيراً من أملاك البلاد .] (١)

وأنت ترى ان الماروني ظلوا محتفظين بكيانهم الشخصي في ذرى جبال لبنان ، لم تؤثر في تكوينهم الأحداث التي مرت في كيان الشرق في عشرات القرون الثوانية التي كرت عليه . غير انهم تأثروا بالثقافة العربية التي سحبت في ان نزولهم من حيث عاشوا جزيرة في بحر عربي متلاطم . فأخذوا اللغة العربية غير انهم ملؤوها فكانت لهجتهم اللبنانية الصميمة امتداداً لأحكام نطقهم في خلجاتها الدقيقة وفي نبراتها . والواقع ان كل شيء في الجبل كان عميق الاتصال بروحها ، غير ان الاخيلة العربية التي كانت تحملها اللغة العربية كانت تلقي ظلالاً على العقلية اللبنانية وتكسب خلجاتها ونبراتها الاصيلة في قالب يطغى عليه الشكل العربي ومن هنا كان لبنان في روحه محض لبناني اما في الشكل فكان عربياً (٢)

غير ان حوادث الجبل حين تركت في النفوس أثرها دفعت اللبنانيين الى قطيعة العرب والابتعاد عن العروبة . وكان يساعد على ذلك استقلال داخلي للجبل في نطاق سوريا الكبرى ، اذ جعل له بحسب نصوص مؤتمر بيروت الذي انعقد من ممثلي الدول الست الموقعة على معاهدة بيروت ، حكومة منظمة في جبل لبنان يؤمن بها من العودة الى ما كان من الحوادث . وكان الاتفاق ان يتولى ادارة الجبل متصرف مسيحي تختاره الدولة العثمانية بالاتفاق مع سفراء انجلترا وفرنسا وروسيا ويساعده مجلس ادارة ينتخب اعضاءه سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية ، وقرروا للجبل دستوراً في غاية من الدقة وقررت فيه المساواة التامة بين جميع سكانه وانعقدت جلسات المؤتمر في اوائل مارس سنة ١٨٦١ لتطبيق هذا النظام (٣)

---

(١) الدكتور يعقوب صروف في امير لبنان ص ٣٣

(٢) A. Bikham في تقاليد الشرق الادنى مجلة مجمع الفكر م ٣ ج ٤ ص ٣١٤ — ٣١٥

(٣) الدكتور يعقوب صروف في امير لبنان ص ١١٦ — ١١٧

ان هذه المركزية الخاصة بشؤون الجيل التي تعود لأهلها ومجلس ادارتها المنتخب الذي يساعد المتصرف ، فصلت بين الجبل وبين العالم العربي بحواجز اقتصادية وسياسية ، وكان ان بقي نظام القرية والاشارة المذهبية على أساس من الوحدة جبل لبنان ، فكان نتيجة ذلك كما يقول العلامة الاستاذ انيس المقدسي

[حركة النهضة الحديثة (١٨٦٠) في البلاد السورية وسعيها الى استقلال لبنان الداخلي تركت صفة خاصة في الادب العربي تجلى ان هذه الحركة في الادب ظاهرتين كبيرتين — الاولى تمثيل الطرازات الدينية بين ابناء سوريا — تلك الطرازات التي كانت ولا تزال من أهم بواعث التفاق في الشرق والثانية انفصال لبنان عن السلطة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى . فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال وفي ذلك الظاهرتين تكون في نفسه ذلك الشعور الاقليمي في سبيل الوحدة العربية

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين هذه الخمسين السنة الاخيرة يرَ شعور ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه ولا ينكر ان بعض اللبنانيين أخذ بعد الحرب الكبرى يشرح نزعة وطنية ضامة ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قوياً] (١)

وجاء استقلال لبنان الداخلي سبباً لتأسيس الكليات والمدارس التي تنافس المرسلون من اليسوعيين والاميركيين في اقامتها في بيروت . كما كان التنافس على أشده في الجيل لانشاء المدارس والمعاهد . وفي الفترة التي انقضت من عام ١٨٦٥ الى عام ١٨٧٥ ، أعني فترة عشر سنين من التي عقبت استقرار الاحوال في لبنان شهدت بيروت وضع الحجر الأساسي لأربع كليات جامعة ، وكان الاب جرجس عيسى من الطائفة اليونانية الكاثوليكية اول من شق الطريق في تأسيس الكليات إذ وضع في تلك السنة الحجر الاساسي لمكتبة البطريركية في بيروت التي افتتحت عام ١٨٩٦ والتي كان من خريجيها شاعرنا الخليل . وفي السنة نفسها افتتح الاميركيون ابواب الكلية السورية الانجيلية المعروفة الآن باسم « الجامعة الاميركية » في بيروت . ثم أقام اليسوعيون جامعتهم الكبيرة عام ١٨٧٥ . وفي السنة نفسها وضع المسيو جان دبس الحجر الاساسي في كلية الحكمة . وكان تأثير انشاء هذه الكليات الجامعية في النشء اللبناني والسوري بليغاً من حيث عمل على تثقيفه على الطرائق الاوربية وانشاء الصلة بينه وبين الآداب الغربية . ولما كان هناك بجانب هذه الكليات عشرات من المدارس التي اقامها المرسلون في الجبل وفي انحاء لبنان وسوريا أخذ التصادم بين الثقافتين الشرقية والغربية يميل الى الثقافة الغربية التي كانت تسيغ على النشء السوري والجيل الجديد في لبنان صور الثقافتين اللاتينية والسكسونية التي كانت قد استقرت في ذرى لبنان وفي انشاطيه (٢)

على ان شعور الانعزال عن العالم العربي في لبنان بجانب مدّ المدنية والحضارة الغربية الجارف

---

(١) أنيس المقدسي المقتطف ، ج ١٢ ج ٣ ص ٣٠٠

(٢) K. T. Khairallah في La Syrie طبعة Ernst Leroux ، باريس ١٩١٢ ص ٣٢ — ٦٨

عمل على تنشيط العقلية العربية في اهل لبنان ، تلك العقلية التي كانت مسدلة اسدافها على اللبنانيين حجبة شعورهم في القالب العربي : وللمرة الأولى في تاريخ لبنان نجح اللبنانيون في ان يظهروا شعورهم وخلجاتهم على حقيقتها في آثارهم ، مستمدة أسبابها من محيطهم الطبيعي . غير ان هذه الخلجات كانت تظهر مشوبة بالشكل الغربي نتيجة لما تركته الثقافة الغربية فيهم من الأثر . غير ان هذا الطابع الغربي أخذ يضعف في لبنان حتى كانت فترة ما بعد الحرب ، فانطلق الشعور اللبناني حراً متغلباً على الاحوال التي تتركها عليها أسباب محيطها الطبيعي

وليس لنا أن ندخل في تفاصيل عن هذه الحقائق ، فما يهمنا في بحثنا لعصر الخليل من هذا الموضوع ، غير شأن واحد ، هو تقطع الثقافة العربية ممثلة في الحلقات العربية التي كانت غالبة على اهل لبنان الى عام ١٨٦٠ من حيث كان كل من يثقف منهم يقع تحت تأثير المتون العربية فينصبّ شعوره في القالب العربي

كان هذا العصر من أزهى العصور التي عرفها تاريخ لبنان . فقد أنجحت محاولة اليازجي الكبير وابنه ابراهيم في ان ترجع باللغة العربية الى جزالتها القديمة وبالشعر العربي الى ديباجته الجاهلية والاموية ، ثم كانت الاحداث التي وجهت جانب الجديد في جوّ لبنان ، فرأينا محاولات في سبيل تمثيل العناصر ذات القيمة في الآداب والفنون والعلوم العربية وقد حمل اللواء في هذا الغرض بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٩٣) الذي حاول اعادة علوم الماضي في دائرة معارف كانت الأولى من نوعها في تاريخ اللغة العربية ، وفي قاموس (محيط المحيط) الجامع الى جانب غزارة المادة جمال التنسيق . ولقد سار في هذا الطريق من بعده ابنهُ وأحد ابناء عمومته سليمان — فأضاف الى ما تركه بطرس البستاني من الدائرة اربعة اجزاء . وعمل سليمان البستاني (١٨٥٦ — ١٩٢٥) في هذا الميدان ورأى بثاقب نظره ان تطور الأدب العربي وقف على ما يلقح به من طرف الآداب الغربية الكلاسيكية فقام بترجمة (الالياذة) من اللغة اليونانية الى اللغة العربية شعراً في قالب يستطيع تمثيله العالم العربي[1]

اذن فنحن في ذلك العصر ازاء بيئات متباينة تتدرج من بيئة المدرسة القديمة التي ترجع الى ايام الازدهار للعدنية العربية تستوحي منها أخيلتها ، الى بيئة المدرسة القديمة التي تمثل عصور الانحطاط للعدنية العربية ، الى بيئة مدرسة تخلصت من آثار عهود الانحطاط واتصلت بموجة الغرب ومن هنا عملت على ان تقتبس من الغرب الى الحدّ الذي يستطيع المحيط في ذلك العصر تمثيله . الى بيئة أنكرت كل ما كان من الماضي وقطعت صلاتها باصول الثقافة العربية التقليدية ومشت سراعاً وراء الثقافة الغربية تحاول ان تقيمها في عالم الشرق الادنى . على ان هذه البيئات كانت

(١) H. A. R. Gibb في B. S. O. S. م ٤ (١٩٢٨) ص ٧٥

تقوى وتضعف بحسب ما تقوم من الاحداث والاسباب

يتحدث خير المتخير الله من كتّاب سوريا المعروفين في كتابه « سوريا » المطبوع بباريس عام ١٩١٢ عن البيئات الجديدة في سوريا ، وهو يذكر منها البيئة الانجليزية والبريطانية والروسية والجرمانية والسكسونية واللاتينية ، الا أنه يتحدث عن غلبة مد البيئة اللاتينية في سوريا ولبنان على غيرها من البيئات الجديدة . والواقع ان البيئة اللاتينية كانت متغلبة في اواخر القرن الماضي في لبنان على كل شيء حتى على البيئة العربية ، وكيف لا تتغلب الثقافة الفرنسية وكل المبادىء والشؤون والفنون كانت تدرس في مدارس الارساليات على العموم باللغة الفرنسية ، ومن هنا خرج ابناء الجيل الجديد في لبنان متشربين الثقافة اللاتينية ومن هنا كانت ميولهم نحو الفرنسيين أيام الحرب

على ان هذه البيئات كانت تتركز في مراكز في لبنان وتخلق حولها جوّاً معيناً ، وكان التضارب بينها على أشده ، من حيث كانت كل بيئة منها تحمل ثقافة تباين بخصائصها الثقافة التي تحملها البيئة الأخرى . وعندك بيئة اليسوعيين الذين يمثلون الفئة المسيحية المحافظة وكانت وسائلهم لتمكين عقليتهم في الجيل اللبناني مدارسهم وكليتهم الجامعة ببيروت . وكانوا يمثلون اقوى سلطة بعد سلطة البطريرك في لبنان ، وكان لهم صحيفة «البشير» اليومية ومجلة «المشرق» الشهرية . وقد وقفت العقلية المحافظة دون ذيوع صور الفكر الجديدة في أوربا واتجاهات الآداب الحديثة . وكانت تنكر على اصحاب « المقتطف » قولهم بدوران الأرض وتحمل عليهم للقول بتسلسل الأنواع ، وتوجّه النقد الى الفيلسوف الدكتور شبلي شميل لآرائه المتطرفة في الدين والاجتماع وتدفعها الى الحملة على الآداب الجديدة التي لا ترجع الى طرائق الأدب الكلاسيكي الفرنسي . ثم عندك بيئة المرسلين الانكليز والأميركيين وهم يمثلون العقلية المسيحية المتحررة ، ولكن كانوا يحملون بينهم جوّاً من الحرية والاتساق المعروف بهما الانكليز والاميركيون ، وكانت بيئة هؤلاء لا تجد جناحاً في مجاراة تيار العصر والرجوع الى التفسير ليوفقوا بين الكتب المقدسة ونتائج العلم الحاسمة ، فكانوا يقولون بدوران الأرض ويعلمونه في دروس الجغرافيا في مدارسهم وفي دروس الفلك في كليتهم . ومن هنا كان تباين القول ومناهج الأذهان في التفكير واختلاف الأذواق الأدبية . وكان بعض المتأثرين ببعض هذه البيئات يذهبون الى أوربا لاكمال علومهم او للتجارة او السياحة ، وكانوا يرجعون وهم يحملون الآراء المتطرفة والمذاهب الجديدة التي عرفتها عقلية القرن التاسع عشر في الغرب

***

كان العصر بجملة القول يمثل عصوراً متباينة — كما قلنا — ومن هنا كان التباين في الثقافة والقول ومناهج الأذهان والأذواق

— ٢ —

امتاز كل عصر من العصور التي انتقلت به الإنسانية من دور الى دور ، بروح مشت فيه وأصبحت الطابع الذي يوسم به ذلك العصر. فللعهد الاغريقي طابع ، وللرومانية آخر ، وللعربية ثالث ، وللقرون الوسطى روحها الكنسية التي تداخل في كل شيء حتى في الحياة العائلية في المنزل. وكذلك الحال في الأربعة القرون الماضية ، منذ أن بزغ فجر القرن السادس عشر حتى اليوم نرى أن لكل دورة زمانية من دوراتها روحاً خاصة . ولكن أظهر ما كان فيها من الآثار نشاط حركة الفكر وتقوي موجة الثقافة وازدياد تيارات العلم ، التي اتجهت بالغرب الى مدنيته الواقعية المادية (١)

والعصر الذي نحن بصدده يمتاز بأن الروح التي تمشى فيه ، هي روح الفكر ، ومن هنا كان أبرز شيء في ثقافة لبنان ، ازدياد حركة الفكر فيها وتقوي موجة الثقافة . غير ان هذه الروح ما كادت تقوى ، وهي متأثرة الأسباب بروح أوربا الواقعية المادية ، حتى قام انضال بين عقلية لبنان الثوارية المحافظة على روحها الكنسية التي تقرب من روح القرون الوسطى ، وبين العقلية الجديدة الواقعية المادية التي حملها الثقافة الغربية اليها

يقول الأديب نشأت المرتيني وهو من شباب سوريا ولبنان المثقفين

[حتى المثقفين منا يرون أننا سنصطنع ما عند الغرب ونقوسنا على ما هي عليه لا تتبدل ، وسنعيش كل ما عند الغرب ونقولنا كما هي ، ونحن الاقدمون لن نتحول ، نطلب عقولنا بالعقول الغربية تعليماً . وشرعنا أدمغتنا بالاساليب الغربية المحافظة ، تبقى عليها خاصة لاساليبها النفسية التي بتركيبة ، ولكنها مستورة بأغشية واهية مادية] ( )

هذه كلمات بليغة في دلالتها على حقيقة ذهنية اللبنانيين . والواقع لا ينكر ان العقلية الكنسية المحافظة في لبنان وقفت في سبيل الذهنية اليقينية فلم تسمح للبنانيين ان يتجاوزوا الحدّ النفي الى اليقينيات . والحقيقة انه في ذلك الحين لم يقدر على التغلب على هذه الروح الا نفر قليل من مفكري لبنان ، نذكر منهم الدكتور الفيلسوف شبلي شميل والدكتور العالم يعقوب صروف والبحاثة الاديب فرح انطون . وبقي بعد ذلك الطابع العام للذهنية اللبنانية غيبيًّا يظهر في نفس الصورة التي كانت عليها العقلية الكنسية ، والتي تظهر بين صفحات التاريخ في القرون الوسطى

الآن الروح الواقعية المادية المتشبعة في ذلك العصر في الغرب ، كانت تنتهي الى جوّ لبنان على يد المرسلين وقد فقدت أصولها اليقينية . واعتاضت عنها بأصول غيبية ، وبعد ذلك فلا جناح ان بقي الشكل يقينيًّا . وهكذا اجتمعت الاسباب على الذهن اللبناني لتخلع على عقليته الغيبية أستار الأساليب الواقعية المادية وهي في صميمها غيبية . وفي هذا وحده ينحصر الفرق بين

(١) انظر اسماعيل مظهر في مفترق السبيل ص ١٧ (٢) مجلة المكشوف ، العدد ١٩٠ ص ٩ — ٧

دهية لبنان في الجيل الماضي والجيل الذي انصرم : العصر والقرن التاسع عشر وبين خاتمة القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

والطبيعة البنانية من حيث هي أقدر طبيعات الشعوب الشرقية على تشرّب الأشياء وتمثيلها assimile ، فإن هذه الطبيعة كانت تسوق اللبناني الى الانطباع والذهنية الواقعية ، إن كانت المدارس والكليات التي قامت فيها علمانية ، ولكن مثل هذا التقدم لم يكن ، فتشبّثت النفسية الشرقية وقد أمدتها أخشية واقية عليها لا تمت بها وبين روح العصر

الا أن الروح الاوربية من حيث جلبت معها النقد — لان اوضح شيء في المدنية الاوربية حرية الرأي والفكر — كانت تقوم بالروح الفردية الاستقلالية ومن هنا كان الصراع بين العقلية الاوربية والعقلية الشرقية التي ليست نوباً من الاصلاح الديني ثارة وثوباً من الدعة والانتصار للحرية الفردية طوراً

***

المدنية الغربية تغزو الشرق الادنى وعلى وجه خاص لبنان . والمدنية الغربية تؤثر آثارها في كيان المجتمع الشرقي ، وهذا الأثر يبدو طلاء على وجه المجتمع اللبناني . ومن هنا كان الافتتان الظاهر بأشكال المدنية الاوربية ، وهذا الافتتان وان مجح في اعطاء لبنان الاخلاق والعادات الغربية فانه لم يتعدَّ مظاهر الجماعة ، وبعد فجماعة بخلجاتها ونبضاتها الداخلية لم تتطوّر تبعاً للحياة التي يأخذها المجتمع الغربي في ذلك العصر . ومن الوهم ان نحمل تعقد العلاقات والصلات على الثقافة والاخلاق الغربية ، لانها ترجع الى اجتذاب المدن اهل القرى والدساكر ، وفي المدن يتكاثر الناس ويزيد الازدحام فتزيد العلاقات تعقداً والصلات اشتباكاً . وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها ، وهي تؤدي الى نشوء المشاعر الجماعية بدلاً من المشاعر الفردية التي تتجلى في الفردية الاستقلالية للجبلي او ابن الصحراء

مثل هذا الاشتباك في الصلات والتعقد في العلاقات كان يسوق ، نتيجة لما ينتهي اليه المجتمع من التيار الثقافي ، الى بعض المحذورات التي لا تقبلها الآداب المتعارف عليها والأخلاق القائمة . ولقد كان هذا الانطلاق من قيود الأخلاق القائمة ، وقيام الآداب الاجتماعية على اساس من انتهاز الفرص واقتناص اللذات ، والتكتل الذي كانت تدفع اليه حالة الازدهار الاقتصادي في ذلك العصر كلها ، بجانب ما تتركه الثقافة الغربية من الآثار الثابتة في كيان المجتمع ، والتي تتداخل مع الثقافة التقليدية الشرقية الآخذة في التقطع — كلما كانت تسوق الى التحلل من قيود الأخلاق القائمة والانطلاق من اوضاع الآداب المتواضع عليها . ولقد كان تكتل الناس في المدن واجتماع مجموع مختلف المشارب والنزعات متضارب الاذواق والحاجات يسوق الى خلق اجواء جديدة

كان من مفهوماتها هذه الأخلاق المتحللة والآداب المتقطعة. على ان الطبقات الدنيا ما كان فيها من بقية صالحة من الاخلاق ومسكة عاصمة من الغواية ، بحكم كونها مركز الثقل في الاجتماع كانت تعتبر غوايات العصر ورذائله من مساوىء الجاه والغنى والمدنية الغربية ، فكانت ترى في فقرها ما تعتصم به من غوايات العصر ورذائل المدنية . ومن هنا كان ذيوع الاخلاق الدينية بين الطبقات الدنيا التي تقوم على اساس من القوة للاعتصام بالصبر والرجاء امام مآسات الحياة. غير ان مغريات العصر كانت اكثر من ان يعتصم منها بالصبر والرجاء والعزاء في عالم اخروي ، فانتشر الرياء والختل والخداع

وهذه طبيعة لعصور الانتقال يجب ألاّ تحرّج من ذكرها

***

وكانت المدنية الأوربية بما تتركه من الأرثالبات في محيط المجتمع اللبناني تتفاعل مع المؤثرات التي تفعل فيه ، فتنتهي الى إحداث رجحان لحالة التغاير الثقافي — التي تكلمنا عنها — وكان من النتائج التي أسفرت عنها ، نشأة مذاهب جديدة تتشعب من الدين الاصلي لجماعة وشكوك تحف بالعقيدة. والواقع ان اختلافات البيئات الثقافية وما كانت مدارس الارساليات تضع بين طلبتها من طابعها الثقافي الخاص ، كانت تمهد لهذا التشعب من جهة ، ولانتشار الشكوك من جهة اخرى. وكان ثمرة هذا كله تقوية ما كان يعرض لمحيط المجتمع اللبناني من عوامل الهدم للعقائد والتشكيك للاخلاق والأديان . وهذا كله كان بمجمع الأسباب ويهيء الجو حول نزعة النقد التي كانت قرارة روح العصر وبذلك يمهّد السبيل للمذاهب المادية . والواقع ان المادية وجدت في بعض الطبقات التي اكتملت اسباب ثقافتها وتحررت عقولها واستقلت شخصيتها على نمط من ذاتها مرتفعاً خصيباً، حتى ان الجيل الأخير من القرن التاسع عشر شهد الفيلسوف اللبناني الكبير الدكتور شبلي شميل يكتب الرسائل في فلسفة التطور ويشحنها بنقد الأديان والعقائد وكان ان بذر هذا الاتجاه المائل نحو المادية الواقعية بذوره في عقلية النشء العربي فاتجهت به الى حركات التجديد في ميدان الدين والفكر والاجتماع

على ان هذا الاتجاه البالغ حد التطرف كان يقابله اتجاه آخر محافظ يستجمع الاسباب من القوى الساكنة في المجتمع يحاول ان يقيم للغيب عالماً في عوالم الشهادة

الاّ ان المجتمع اللبناني في السوم لم يكن يتقبل قبولاً حسناً الحركات المتطرفة في الدين والاجتماع والذاهبة مذهب الماديين من الغربيين، كما وأنهُ لم يكن يسمح بتقبل الصورة الكونية التي رسمتها الكتب المقدسة والشريعة الكنسية المشتركة ، لان ما كان ينتهي اليه من الحقائق

النهائية للعلم اليقيني الأوروبي كان يعارض الصورة الكونية التي رسمتها الكتب المقدسة ، ومن هنا كان الصراع بين الحقائق الجديدة في الكون والصورة القديمة ، وكان مظهر هذا الصراع ، فضلاً بين رجال الدين تملي العلمية المؤمنة بالصور القديمة في الكون وبين رجال الفكر من الآخذين بأسباب العلم اليقيني الأوروبي. وأمام تيار الافكار العصرية والمكتشفات العلمية اضطر رجال الدين ان يفتحوا باب التأويل والتوفيق بين ما في الكتب المقدسة من صور كونية وبين ما انتهت اليه الحقائق العلمية من رسم صورة للكون . ولا يهمنا ما كان من تفاصيل هذا الصراع ، ففي مجلدات المقتطف الأولى شيء من هذا . ويعد فالدين على ما هو عليه من تشعب المذاهب ، والعقيدة على ما هي عليه من الشكوك التي تحف بها ، كانا من أظهر ما يسترعي النظر من طابع ذلك العصر

***

ما تمّ

كان العصر ، عصر إيمان وشك ، عصر يقين وحيرة ، عصر حكمة وجهالة ، عصر اشراق وقتام عصر نور وظلام ، ومن هنا كان ذلك العصر أحسن الأزمان وأسوأها . ولهذا لم يكن من المستطاع لتداخل الحالات المتباينة تعريف العصر بحدّ ثابت غير اننا يمكننا ان نقول :

[لقد كان روح ذلك العصر قلقاً ، كان الجديد يتحول بعد زمن الى حركة ضد القديم ، والقديم يتحول بعد فترة الى حركة ضد الجديد . كان العصر تتجاذبه قوى مختلفة ومن هنا كان متقلقلاً بمثل عصور الانتقال أحسن تمثيل . لقد كانت نسمات الصحراء تهب عليه ، وكانت الرياح تحمل اليه من بيت لحم اصداء ما تركه المسيح في أجواء فلسطين . وكانت تشده أمراس الماضي لحالات يخرج بها منه ، كما تجذبه الى أيام ازدهار المدنية العربية ذكريات تخالجه . ثم بعد ذلك الاعصار الذي كان يهب عليه بين الحين والحين من جهة أوربا تتجمع السحب من البحر الابيض المتوسط فوق قمم الجبال في لبنان ، ثم تسيل بها الوادي وتنصرها سيول المدنية الاوربية تتجري في الوديان والبطاح باعثة الحياة في كيان الشرق الادنى]

كان هذا العصر بطابعه العام خير العصور التي تُمهد السبيل من حيث استجماع الأسباب لمثل رسالة الخليل الإبداعيّة . وليس لنا ان نطنب في الكلام عن الطابع العام لهذا العصر مستقصين عن أسبابه محللين لحوادثه أكثر مما فعلنا ، لأن ما يعنينا — كما قلنا من هذا العصر — هو ما اتصل بشخص الخليل من أسبابه ، وهي مستمدة من طابع الجماعة العام التي عاش الخليل في ظلها وتنفس النسمات الأولى في أجوائها . ولنا بعد ان ننظر في حقيقة ما اتصل من العصر بشخص الخليل ، ونخلص بالعوامل التي تفاعلت مع شخصه فكانت سبباً في تكوين شخصيته